قبلة الملكة

القصص الفرنسي ج ه روسني

بقلم الأديب كمال الحريري

هذه هي عشر سنوات ، وانا راسخ الجذر في هذا المكان البائس « ل » مقيم في هذا المنفى لا أبرحه .

ومع ذلك ، فكل الناس كانوا يحسبون حساباً لمواهبي وخصالي ، وكلهم كان يقدر أني سأبلغ أرقى المناصب ، وأنال أرفع الوظائف التي لا تطاولها إلا رتبة الملك حتى أشد أعدائي ، وشر خصومي كانوا لا يغمطون مؤهلاتي . ولكن هذا كله وا لهفتاه ، لم ينجني من الحكم علي بالتعفن في هذا الجحر الضيق الذي يسمونه « ل » ولذلك قصة عجيبة عالية ، تتلخص في أن امرأة كانت سبب نكبتي ، وهذه المرأة هي الملكة

لقد كنت في التاسعة عشرة من عمري ، في فتوة ساخرة . وكان من عادتي ، أن أغازل عرائس أحلامي ، ما بعد الظهر من كل يوم ، في حديقة الملك الوسيعة الملتفة الأدغال ، تحت الجبال الشامخة . مشيت في ذلك اليوم طويلا ، تحت ظلال الزيزفون التي كانت تنمو في أرض تفذيها ساقية عذبة صافية ، وتحوطها مروج من الأعشاب السندسية الخضلة الندية ، تعزلها عن أشجار الغابة وأدواحها . وانتهى بي السير ، إلى بساط من الأرض مفروش بأشجار من الحور ، كانت ذوائبها تتراقص وتثني الواحدة نحو الأخرى . وهناك بين تلك النهيرات ، كان نهير ، يفترش ماؤه فيتحرك إلى بحيرة صغيرة ، تحفها شجيرات من قصب الخيزران المزهرة .

كانت أشباح الغموض والسكون ، تخيم على تلك البقعة الموحشة ، إلا ما كان من خرير ماء النهر وهو يجري في الأعماق ، أو التماع قصور من غيوم السماء كانت ترتسم على غرفة من أشجار الأرز .

وفي هذا المكان جلست غارقاً في لجة من الأحلام والأخيلة بدأت مشاعري تطغى علي وتنتشر في ذهني ، فرحت أمتع النفس والحواس ، بصفاء هذه النزهة . وأنا متخل بروعة الأصيل ، غارق في سحره الجميل . ولكن قلقاً مباغتاً ، انبثق في نفسي فجأة . سمعت على أثره لصدري خفقاناً طغى على هدير النهر خفقة مجذاف كأنها تبرر لي هذا الاضطراب والارتعاد فلم ألبث أن تواريت فزعاً مضطرباً خلال دغلة من الدغلات . وانقطعت خفقة المجذاف على الماء . فعاد السكون والغموض ، يجثمان على المكان وروعة أشعة الأصيل ، تسترسل من خلال الغصون فتلمحت على ضوء شعاع متسلسل بين فجوات الأوراق ، بطة لماعة تمخر الماء ثم تلتها أخرى ذات طوق نحاسي وتغريد حلو . ثم أخذت تتعالى مجدداً ، خفقات المجذاف وبعدها ارتسم أمامي على عطفة الشاطىء مقدم زورق للصيد ، نهضت فوقه ، فتاة رائعة الجمال ، تتوهج على يديها أشعة من دماء صيدها للطيور . كان في عينيها نفاذ وحدة وعلى فمها فتنة سماوية وكانت يداها البضتان ، تحركان المجاذيف في مشقة وإعياء بينما رغاء الزبد يتفجر كقطع الثلج أو نثار اللؤلؤ خلف الزورق السحري . أما أنا فقد اهتز كياني من الحنان والأسف ، وانثالت على لساني الدعوات .

وبالغت في التستر والتواري . وقد كتمت أنفاسي وكاد الاضطراب يبلغ بي درجة الإغماء . ذلك أنها إنما كانت هي .. هي الملكة التي كنت أهيم بها في الخفاء ، والتي ما زلت منذ بعد هذه الظهيرة أحلم بها الأحلام السعيدة البهيجة أثناء نزهتي .

وكان في نهاية الزورق ، صبي صغير منتصب ، هو الأمير الجميل دهت ابن أخت الملكة .

كان ممسكا بسكان الزورق ، بينما خالته الملكة سابحة في أجواء أحلامها وقد مال عنقها الذي يشبه عنق الإوزة إلى الجانب ، وامتدت ذراعاها الناعمتان الحريريتان إلى الأمام . كانت تجذف على ضوء الأصيل الأصفر إيه يا إلهة الملاحة ، يالك من حلم عجيب وسمعت فجأة صرخة داوية ، ثم أبصرت بالزورق يتقلب على الماء والأمير الصغير يسقط في النهر في حين تعلقت فيه الملكة الملتاعة

الجزعة ، يغمس غليظ من أغصان الحور .

ووثبت إلى الماء بقفزة ، وقبضت على الغلام الذى كاد ينجرف مع التيار ، فوضعته على الشاطىء الأمين ، ثم جدفت بالزورق نحو الملكة . لقد لمست ذراعاى جسمها الذى خلق فقط لكى يضمه أبناء الملوك . أما هى فقد كانت شاحبة الوجه مرتجفة الأوصال . لم تنطق أولا بحرف ، وإنما لبثت ترمقنى بعينيها الساحرتين المفزعتين غير أنها حين أحست بنفسها منتصبة على قدميها فوق الشاطىء ، قذفت بنفسها هلعة فزعة على الأمير الصغير المسكين ، الذى كاد يغمى عليه من روعة الحادث . ثم عانقته بحنان حافل فزع ، وقالت لى : إنه مدين لك بحياته فاطلب منى ما شئت تلقنى أول الملبيات . فصحت : أتعطينى كل شىء ؟ ثم عرانى اضطراب وحشى ثائر ، وماد بأعطافى جنون مضطرم جياش . أما هى فقد شدهت لصرختى وجملت لحاظها تتلاقى مع لحاظى . ثم أسبلت أجفانها حياء وتضرج وجهها بحمرة الخجل .

لقد كنت كما أسلفت ، فى ريعان الصبى ، ولى محيا فتان اللامح ، وكانت الملكة تعرفنى جيداً ، لأنها طالما أبصرت نظراتى تتعلق بمفاتنها . وعلى هذا فقد فهمتنى . ولحظت أنا فى نظراتها الثابتة فىّ ، شيئاً من ارتجاف جعلنى أكثر جنوناً بها ، وأشد نشوة وتلذذاً بفتنها النبيلة ودمها اللوكى . ثم أخذنى ميل لذيذ مشتعل لانتهاك حرمة هذا الجمال اللوكى ، فظللت مرتجفاً هلوعاً . ثم استأنفت قولى : أتقولين إنك تمنحينى كل شىء ، دون أن ترجعى عن كلمتك ؟ ... فأشاوت برأسها بالإيجاب ثم اصطبغ محياها بدم الخفر . واستقلتها حمياً من النشوة . وقلت لها ، أرغب منك قبلة . فأجابتنى بلهجة العاتب . أى جنون هذا ؟ . لعمرى أن صغر سنك وحده . هو الذى يبرر هذه الإباحة الفاجرة . ولكنها فى الحق ، كانت تشاطرنى اضطرابى وتقاسمنى شعورى : إذ راحت تتمعن فى جسمى الذى التصقت عليه ملابسى المبللة ، وتنظر إلى نظرات مبهمة غريبة . وعندئذ ، بلغت بى الجرأة حداً كنت بعده موطناً العزم على عدم النكوص ولو أمام خشبة الشنقة .. وهتفت بها مجدداً : اذكرى أنك قطعت على نفسك عهداً .. وقبل أن تتمكن من الدفاع عن نفسها ، تقدمت إليها فى جرأة ، وأمسكت برأسها الملائكى بين كفى ثم أهويت بفمى الحران اللهفان إلى فمها . وحينئذ .. وبعد قبلتى المديدة العميقة شعرت بشفتيها الشهيتين الحلوتين ، تجيبان قبلتى فجأة ، وتنحنيان على شفتى بلثمات عنيفة حارة ضاغطة . لم يدم ذلك إلا كلمحة البرق ، ولكن هذه اللحظة على قصرها ، كانت من النفاذ والتأثير فى مشاعرى وحواسى ، بحيث أن فى ان ينسى أبداً لذاذة هذه القبلة . وحين دفعتنى الملكة أخيراً عن نفسها ، كان أحد نبلاء الحاشية يتقدم نحونا تحت ظلال الحور ..

نمى الخبر إلى الملك ، فعرف كل شىء ، وتحتم على الملكة أن تفسر له جلية الخبر . ومع أنها على التحقيق ، قد أسقطت من قضيحتها (اشتراكها الآثم لحظة فى مبادلتى القبلة) إلا أن ذلك ، لم يقلل من عزم الملك على نفيى وتشريدى .

لم أكن أملك ثروة ، وكانت وسائل مرتزق متعلقة كلها بأسباب الملك ، الذى قضى بنفيى ، فأبحر بى إلى هذا المكان «ل» الذى شغلت فيه أولا وظيفة « سكرتير » ثم وظيفة قنصل .

إن الملك رجل حقود ، لا يعفو عن زلة فلست آمل أن يغفر لى جريمتى مطلقاً . وعلى هذا ، فقد قضى علىّ أن أدفن فى هذا المكان إن لم ينقذنى موت حاكمى وسيدى الملك

إنه ليعروننى الندم فى بعض الأحيان ، فآخذ نفسى باللوم الشديد على ما ورطنى فيه جنونى . ولكن تأتينى هنيهات ، أشعر فيها بشفتى الملكة كأنها حاضرة تنطبع على فمى وحينئذ لا آسف على شىء فى الوجود

لقد حدث لى ما يلى خاصة فى أمسية عيد الصعود وذلك إنى فى ذاك اليوم ، تلقيت من العاصمة التى فيها الملكة ، هدية غصناً رطباً مزهراً من أغصان الخيزران (ذلك النبات الذى كان يحف بالبحيرة التى أنقذت من مائها الملكة) فعرفت أن هناك شخصاً حبيباً لم ينسنى بعد ... واختلجت لهذه الذكرى شفتاى اختلاجة الوله والمرارة ...

(حلب) كمال الحريرى

شرق وغرب

قصائد وأناشيد ، صور وأغان ، أصوات من الشرق ، أصداء من الغرب ... ديوان جديد للأستاذ على محمود طه

يصدر هذا الأسبوع

سكك حديد الحكومة المصرية

جداول مواعيد القطارات لفصل الشتاء سنة ١٩٤٧ — ١٩٤٨

لقد شرعت المصلحة فى إصدار طبعة الشتاء المقبلة من جداول مواعيد القطارات المتداولة بين آلاف الجماهير وذلك اعتباراً من أول نوفمبر سنة ١٩٤٧ وفضلا عن أهمية الاعلان فى الجداول المذكورة فان المصلحة تتقاضى مقابل النشر فيها أجراً زهيداً .

فالصفحة الكاملة بستة جنيهات ونصف الصفحة بأربعة جنيهات فاغتنموا الفرصة وسارعوا من الآن إلى حجز ما يروقكم من صفحات هذه الجداول نظراً إلى أن الاقبال على الاعلان فيها شديد .

ولزيادة الاستعلام اتصلوا : —

بقسم النشر والاعلانات

بالادارة العامة — بمحطة مصر

مطبعة الرسالة